

مفروشات طرابلس: نحو هوية تراثية يعاد إنتاجها

بغيا ب المصادر التاريخية وعمليات التنقيب الحديثة، تعتبر طرابلس مدينة حديثة التكوين نسبياً. تأسست على يد الكنعانيين، وبالتحديد الفرع الفينيقي الذي شيد حضارته على شواطئ لبنان وسوريا. فكانت طرابلس، خلال هذا الوقت، بمثابة عاصمة فيدرالية أنشأتها المدن الفينيقية الثلاث صور وصيدا وأرود. على ضوء ذلك، يبقى الحديث عن إرثها الثقافي مناط بالتأثيرات الثقافية والفنية الكثيرة التي توالى على المدينة، من الكنعانيين، مروراً بالرومان، والبيزنطيين، والعرب، والفرنجية، والمماليك، والعثمانيين، حتى الانتداب الفرنسي.

إذاً، طبيعة موضعها التاريخي الذي جعلها محط أنظار الحضارات، حال دون وجود هوية مادية ومعنوية طرابلسية بحتة، قائمة بذاتها، تغزو الأنماط المختلفة وتفرض وجودها وتؤثر. من بين هذه التجليات يأتي العمران والمفروشات، كأهم المظاهر الحضرية في طرابلس، والتي بقيت خاضعة لهذه الحضارات مع ما فرضته من نظم سياسية واجتماعية وأنماط عيش. إنماء، وبمجمال الصورة، بالامكان تطويق هذا التراث الطرابلسي على أنه متوسطي، عربي، شامي، مدني. يتمتع بنقاط مشتركة مع التراث اللبناني ولكنه يخضع لخصائص مدنية ينبغي تمييزها عن التراث الريفي أو الجبلي.

وقد تعرّض قطاع المفروشات في طرابلس، بعدما عاش عهده الذهبي بين الخمسينيات من القرن الماضي حتى أوائل التسعينيات، مانحاً للمدينة لقب "مدينة المفروشات". يرجّح المختصون مبادرة إنشاء مجموعة قطاعية Cluster تنتشر هذا القطاع الانتاجي من كبوته المستعصية، ليس أبسط مؤشرات عشرات ورش النجارة التي تغلق أبوابها. وإحدى أهم مهام هذا ال Cluster هو إعادة تسويق أصالة المنتج الطرابلسي في سوق المفروشات. ولكن كيف؟

تحديث الهوية الأصلية

أظهرت دراسة أقامتها Expertise France مؤخراً في إطار مشروع "منجرة"، أن المستهلك اللبناني يميل للمفروشات المودرن يليها طراز الكلاسيك شيك. دمج هذه الأذواق بعلامة تجارية طرابلسية يستدعي أولاً استنباش هذه العلامة الفارقة. فبالرغم من تعددية الحضارات، يرجح الباحثون تأثر المفروشات في طرابلس بثلاث حقبات أساسية هي المملوكي والعثماني والفرنسي. وإعادة انتاج هذا الارث يجب أن يتم من خلال تحديثه وتكييفه لمواكبة الأذواق والاحتياجات المعاصرة، فيحلّ هذا الماضي الحرفي ملهماً فقط للحاضر وليس قيداً له. واللافت أن النجارة القديمة اندمجت صناعتها بالعمارة، بحيث لم يكن هناك فارق بين المهندس المعماري ومهندس الديكور، الذي يدمج ما يعرف بالنجارة العربية في هندسة المباني، كالسمندرة، والشبابيك والأبواب، والطبلية، والدشك، والكنبة الشرقية، والمشربيات، وسائر تصاميم كوّات النور التي تسمح باستنباط سمات تراثية محلية.

وإن كانت لتصاميم الهندسة الداخلية والمفروشات خصوصية تكتنزها مدارس المدينة القديمة ومساجدها وكنائسها، ثمة ميزة محلية أخرى للنجارة داخل البيوت الطرابلسية، موجودة في الأدوات والأواني المستخدمة في المطابخ، وهي مؤهلة للتطوير على نحو بعيد. يساعد على هذا التحديث هامش الابداع الممكن في صناعة كلّ ما سلف، من خلال توليفة جديدة للمواد المستخدمة سابقاً في

المفروشات الطرابلسية: نحاس، حجر، زجاج مشطوف، خشب، القش، البلاط، والرخام والفخار، وال fer forgé، ومن الأقمشة يُذكر الحرير والبسط.

خصوصية طرابلسية: النجارة العربية وخرطة الخشب

ما يعرف في طرابلس بالنجارة العربية هي النجارة التي تهتم بتصنيع الأبواب، الشبابيك، خزائن المطبخ، وقديمًا الشقاعات، أي الفتحات الصغيرة التي تعلو الأبواب والشبابيك كما المشربيات والشعريات التي كانت تغطي الشبابيك لتسمح للنساء الرؤيا من الداخل فيما يحتجن عن الخارج.

هذا القطاع مرتبط كما يمكننا أن نلاحظ، بالعمارة. ودخوله مرتبط بتطور نسق العمارة في المدينة، موضوع يحتاج لدراسة مفردة تتناول ليس فقط هذه الحرفة، ولكن كافة الحرف المرتبطة بهذا الميدان، والتي نذكر منها على سبيل المثال حرفة تصنيع البلاط اليدوي، الخفان، قوالب الجص، وكل ما يلحق بها من نمط زخرفي وتزييني، الرخام تقطيعه ونقشه، التوريق، الدهان، القرميد، وغيرها من الحرف التي ما زالت نشطة في طرابلس.

وتعدّ خراطة الخشب حرفة طرابلسية عريقة، كانت ترفد البيوت بكل الأدوات الخشبية التي تستخدم عادة كأدوات مطبخ: خشبة الفرغ، المدقات المختلفة الأشكال والأحجام، الأجران، الملاعق والمطارق، قوالب تشكيل المعمول والسيوة وخبز الخميس. وكان القبقاب الخشبي قديمًا يعتبر من أهم نتائج هذه الحرفة.

وإذا تحدثنا عن القبقاب، فلا بد لنا أن نثير مدى تراجع صناعة كراسي القش الصغيرة والكبيرة والتي يتم تفصيلها وأحيانًا نقشها في هذه المحترفات. والنقش نوعان عربي وافرنجي. النقش العربي يتم بواسطة نبات يسمى الشحمين (من فصيلة القصب) الذي ينبت غالبًا على ضفاف المياه، ومنه أيضًا البعل الذي يتميز بقساوته. عند استخدام هذا النبات للنقش، يبلل بالماء حتى يلين ويسهل لفه وعقده دون أن يتكسر. يعتمد الحرفيون لوصل عيدان الشحمين بطريقة لف أطراف النبتة ببعضها البعض، فتتحول العيدان إلى حبل طويل يعتمد إلى لفه بين أطراف الكرسي، إما بشكل رسم يسمى المشط أو بشكل رسم آخر يسمى الحرز. وهذا الأخير هو الشكل الأكثر انتشارًا.

مدارس ومساجد طرابلس.. تصاميم مملوكية وعثمانية

"تسع مساجد، ستة عشر مدرسة، خمس خانات، ثلاثة حمامات الخانكا"، بهذه الصّروح تفنّد دراسة "Tripoli The Old City- Sourcebook of maps and architectural drawings الصادر عن الجامعة الأميركية ببيروت، تفنّد الآثار المملوكية الأبرز في المدينة المملوكية الثانية حول العالم. وتنصرف هذه الدراسة إلى تفحصّ التصاميم والخصوصيات العمرانية التي وسّمت هذه المباني، مما يهيء الاستفادة منها اليوم لتقديم منتج طرابلسي يحمل هذه الصبغة الحصرية.

تتراص على بوابة المسجد المنصوري أقواس متتالية من القوالب الحجرية المنحوتة بتصاميم سهلة ومتعرجة، بالإضافة إلى التصميم المققب للمدخل الذي تزيّنه ورود بأربعة فصوص في جزئه الداخلي. وتمتاز المئذنة بشكل الرمح المثمنة، والقبة المخروطية. وتحتوي في طابقها الثالث والرابع على نوافذ مقوّسة. فيما يعود تصميم الورد في الداخل، معتلًا المحراب. ويبرز النحت الهندسي في المنبر الخشبي.

أما في بوابة مدرسة مشهد، تتوج قبة المدخل نصف الملونة صفين من تصميم المقرنصات مع نافذة نصف دائرية فوق عتبه. وقبة المدخل مبنية من الرخام المطعم، مع نجمة مركزية يشع منها نقاط تصميم للشبابك. ولجهة الجنوب، فُتح شباك منخفض يعلوه عقد متأرجح عند العتبة. ويزين جدار القبلة لوحة من الزخارف الجصية. ويستقر على إفريز تؤطره أضلع كخلايا النحل. كما تحمل البوابة ميدالية دائرية كبيرة مزينة بتصميم المحلاق المعرّش، وأوراق منمّقة تقضي أطرافها الى أزهار تجريدية.

أما المدرسة القرطاوية، فتتفرد تفاصيلها الزخرفية بشريط طويل من الرخام الأبيض عند نوافذها الأربع، وتأطير جهتها الجنوبية بزخارف على شكل جلد السمك، الذي يظهر أيضاً فوق باب مسجد العطار وفي زخارفه الداخلية التي تضاف اليها الزخارف النباتية. وينسحب النمط المملوكي بامتياز على النوافذ البديلة للمدرسة من خلال تصميم النجمة الذي يميّز أيضاً نوافذ مسجد العطار.

ويظهر على بوابة المدرسة النورية عقد متأرجح بألوان مختلفة. وهناك الحجر الأبلق عند أضلع الشبابيك. وينتقل هذا التنوع في الألوان الى الداخل، خصوصاً في المحراب المبنى من ألواح رخام متعددة الألوان، والمستوى الخلفي المغطى بتصميم نجوم متعددة الألوان.

أما مدرسة الخيرية حسن، فتزود شبابيكها بقضبان معدنية للأمان.

وتستوحي المدرسة الناصرية، والمدرسة الطويشية، وجامع العطار عند بواباتها تصميم "المقرنص" من شمال شرق ايران وتحاكيان أيضاً عمارة شمال أفريقيا. وتبرز المقرنصات أيضاً في مؤذنة جامع الأويسية القائمة على دعائم ثلاثية. ومعها ننقل الى طرابلس خلال الحقبة العثمانية المبكرة.

ويظهر التصميم المثلث في مؤذنة جامع المعلق غير المزينة. وتصبح نقوش جلد السمك المنمنمة تصاميم تؤطر محراب جامع التوبة.

ويتكرر ظهور تصاميم النجمة المملوكية، وقشرة جلد السمك، والورود التي تعلو البوابات، والمقرنص، في غالبية مدارس ومساجد طرابلس المملوكية والعثمانية المبكرة، لتسطّر نماذج تلازم الصورة المعمارية القديمة للمدينة.

إزاء هذا الغنى في التصاميم، لا يزال السؤال مطروحاً، هل هذا الهجين من التصاميم والعناصر والاستخدامات يشكل هوية؟

وعملياً، هل الممكن إعادة انتاج كل هذا العناصر معاً أم ثمة تحدّ يبرز في تحديث كل منها على حدة؟

جودي الأسمر